



مقدمة

تعد الدراسات السياسية أساس الدراسات الاجتماعية والاقتصادية كونها توضح المنهج الإداري للدولة والنمط السياسي الذي تحيا وتقوم عليه هذه الدولة، وما التاريخ إلا تسجيل للأحداث البارزة المهمة في تاريخ البشرية فقد اهتمت كتب التاريخ منذ نشأة هذا العلم بتدوين ما يجري من حروب وصراعات وتعاقب ملوك وأمراء في كل دولة وحضارة.

وعلى الرغم من توجه الدراسات التاريخية الحديثة نحو الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية فإنه لا غنى لهذه الدراسات من أن تنظر إلى هذه الجوانب من منظور سياسي.

ونظراً لأهمية مدينة دمشق الاستراتيجية والاقتصادية والثقافية، فقد حظيت عبر تاريخها الطويل بقدر كبير من الدراسة والبحث. وليست هذه الدراسة إلا محاولة بسيطة لتسليط الضوء على بعض النقاط التي لم تُبحث على نحو واسع من قبل تاريخها الحديث.

فقد دخل العثمانيون دمشق إثر انتصارهم في معركة مرج دابق سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) على المماليك وبذلك أصبحت دمشق المركز الرئيسي لولاية الشام بشكل خاص وبرها بشكل عام. وقد حظيت هذه الولاية بأهمية خاصة من الدولة العثمانية ومن سلاطينها عبر تاريخ سيطرتهم الطويلة على الشام والوطن العربي، وذلك لقربها من مركز الآستانة ولأنها كانت أهم محطة على طريق قافلة الحج الشامي. وملتقى القوافل والطرق التجارية القادمة من جميع أنحاء الإمبراطورية

العثمانية. فقد تمتعت دمشق بوفرة هائلة من الأسواق التي حوت على أنواع متعددة من البضائع وزاد من أهميتها فتح طريق سكة الحديد الحجازي الذي سعى السلطان عبد الحميد الثاني من خلاله إلى ربط مقدرات هذه المدينة بأنحاء إمبراطوريته.

ومع بداية القرن التاسع عشر طرأت تغيرات كبيرة أثرت في الدولة العثمانية وسياسيتها الخارجية والداخلية، وكان من أهم هذه التغيرات نمو الفكر القومي في أوربة والذي اتخذته الدول الأوروبية العظمى ذريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية وساهمت من خلاله في تفكيك وتجزئة هذه الإمبراطورية، فلم يأت القرن العشرون إلا وكانت أجزاء كثيرة من المناطق الخاضعة للسيطرة العثمانية قد أعلنت انفصالها واستقلالها عن جسد الدولة بحجة دعواها القومية ورغبتها في تشكيل كيان مستقل عن الإمبراطورية العثمانية.

ولم تكن ولاية دمشق بمعزل عن هذه الفكرة، فقد كانت مركزاً هاماً لنمو الفكر العربي القومي الذي حملته ثلة من رجالات دمشق وبر الشام. وكان الصراع مبرراً بين السلطة وهذه الفئة المستتيرة المثقفة بثقافة الغرب والحاملة بحكم مستقل بعيداً عن سلطة الولاة والسلاطين.

والسؤال الذي يعرض، والأمة العربية تمر بأخطر مراحل عروبتها ومصداقيتها، هو ما مدى مصداقية فكرة العروبة التي سعى أوائل الأحرار العرب إلى تبنيها والنضال من أجلها ودفَعوا أرواحهم ثمناً لها، ومن أجل الاستقلال والتحرر عن الدولة العثمانية؟

فبعد مرور ما يقارب القرن من الاستقلال والتحرر عن كيان الإمبراطورية العثمانية والتي كان يتصور الكثيرون أنها بفرضها سيطرتها على البلاد العربية ومقدراتها قد منعتها من إبراز شخصيتها القومية الحقيقية، ومن أن يكون لهذه الأمة اليد الطولى في تقرير مصيرها وتسيير مقدراتها، كذلك يمكن أن نتساءل ما هي الثمرات والمكاسب التي جنتها الأمة العربية بعد هذا الاستقلال؟ ربما عندما كانت فرحة الاستقلال قريبة شعر الشعب العربي بنشوة النصر والنجاح ولكن بعد أن صحت من حلمها أدركت حقيقة الواقع المرير الذي تعيشه، فأقطار عربية مجزأة وبلاد محتلة وحروب وصراعات حدودية مستمرة وعدو متربص بهذه الأمة يحتل بلدًا

بعد الآخر.

ففي البدء كانت فلسطين ثم العراق ولن ندري على من يأتي الدور الآن، فهل هذا هو الحلم الذي استشهد من أجله أحرار السادس من أيار؟ وهل هذا هو الحلم الذي من أجله دفع كثير من المفكرين العرب الأوائل دماءهم وأرواحهم ثمناً له؟. ونتساءل مرة أخرى هل كان الخطأ في البداية، أم في التطبيق؟ هل نحن الذين ضيعنا الطريق؟ وهل جيلنا أو الأجيال التي سبقتنا تتحمل مسؤولية ما وصلنا إليه؟ وانطلاقاً من هذا حاولت جاهدة أن أبحث في أمهات الكتب والمصادر والمراجع لعلمي أجد ما يشفي صدري أو يجيب عن تساؤلاتي، ولكن هيهات فكتب التاريخ كثيراً ما تبخل علينا بالحقيقة، وما سبب ذلك إلا لأن التاريخ يكتبه الأقوياء، أقر بعجزى وعدم قدرتي على الوصول إلى أجوبة مرضية، وربما تستطيع الأجيال القادمة أن تجيب عن هذه التساؤلات فقد يكشف التاريخ بمجرياته وأحداثه عن خبايا لم تكن قد بينتها كتبه.

وأما بالنسبة للصعوبات فلم تكن هناك صعوبة كبيرة في الحصول على المصادر والمراجع الخاصة بدراسة هذه المرحلة فهناك سجلات المحاكم الشرعية في دار الوثائق بدمشق، وكذلك السالنامات الموزعة ما بين دار الوثائق ومكتبة الأسد والمكتبة الظاهرية، وأما المراجع فهي كثيرة عن تاريخ الدولة العثمانية وعن دمشق، ولكن احتاج مني الأمر فقط إلى استخلاص المعلومات الخاصة بمدينة دمشق في المرحلة الحميدية.

وقمت بتقسيم البحث إلى ثلاثة فصول مع مقدمة وخاتمة له :

أما الفصل الأول: فقد عالجت فيه الحياة السياسية في مدينة دمشق في الفترة المذكورة، فتحدثت فيه عن واليين يعدان من أعظم الولاة الأربعة عشر الذين تعاقبوا على مدينة دمشق في الفترة الحميدية، وهما مدحت باشا وناظم باشا، فالأول عمل جاهداً على رفع الحالة العلمية والاجتماعية لمدينة دمشق، وبنى فيها الكثير من المعالم التي لا تزال تشهد له حتى أيامنا هذه، وأعظم ما خلفه هو صياغة الدستور العثماني وهو أول دستور وضع للبلاد، أما الوالي ناظم باشا ففضلته كان كبيراً في الناحية العمرانية، فقد تم في عهده الكثير من الإنجازات منها على سبيل الذكر لا

الحصر: مد الخط الحديدي الحجازي، والبرق، وإنشاء المدارس العليا والكلديات وترميم الجامع الأموي وبناء حي المهاجرين.

ثم انتقلت في هذا الفصل للحديث عن أهم الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية منذ تسلم السلطان عبد الحميد الثاني للحكم وهي: الحرب الروسية العثمانية والحرب اليونانية العثمانية، وكذلك كان الحديث في هذا الفصل عن الحياة الدستورية والمجالس النيابية في الدولة العثمانية ونصيب مدينة دمشق منها، ثم كانت الفقرة التالية عن الثورات والفتن التي حدثت في دمشق في تلك المرحلة، ثم ختمت الفصل بالحديث عن الأحزاب السياسية التي ظهرت في تلك المرحلة.

أما الفصل الثاني: فقد أفردته للحديث عن الحياة الدينية في دمشق وما أدراك ما الحياة الدينية في دمشق، فدمشق هي "شام شريف" كما أسماها العثمانيون، من هنا كان الحديث في هذا الفصل عن الطرق الصوفية، وكيفية رعاية السلطان عبد الحميد الثاني الشخصية لهذه الطرق واهتمامه بها وبرؤسائها، كما تحدثت في هذا الفصل عن الزوايا والتكايا ومقامات الأولياء والصالحين وقبورهم الموجودة في دمشق. حيث أولت الدولة العثمانية عناية خاصة لهذه المقامات، فكثير من قببها ومشيداتها أنشئت بإشراف الولاة العثمانيين في تلك المرحلة.

ثم أفردت فقرة للحديث عن المسيحيين واليهود وعاداتهم وسكانهم في دمشق.

أما الفصل الثالث والأخير: فخصص للحديث عن الحياة الإدارية لدمشق في الفترة الحميدية، حيث تمت دراسة الجهاز الإداري بتفصيلاته من الوالي إلى المكتوبجي فالدهتردار والقاضي ووظائف أخرى عُرِفَتْ حسب الدستور العثماني في دمشق.

وسردت في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل أسماء الولاة الأربعة عشر الذين تسلموا ولاية دمشق في أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

وختمت كل فصل بخاتمة حوت خلاصة ما تضمنه هذا الفصل. وانتهى البحث بخاتمة حاولت أن أُلخص فيها أهم النتائج التي أعتقد أنني وصلت إليها.

وهذا جهد فإن قصرت فما أنا إلا كقول الشاعر^(١).

والصلاة والسلام على رسول الله.

وختاماً، فإنني أتوجه بالشكر إلى من مدّ لي يد المساعدة أو أسهم في تصويب بحثي وإرشادي إلى الطريق الناجحة، ولا يفوتني التوجه إلى قسم التاريخ بكادره التدريسي والتعليمي والإداري لما قدموه لي من مساعدات لولاها ما كنت قد حققت ما حققت، فلهم مني الاعتراف بالجميل والعرفان بفضلهم، كذلك فإنني أتوجه بالشكر الجزيل إلى مكتبة الأسد والعاملين بها، وإلى مديرية الوثائق بدمشق على تقديمهم الخدمات لي ولزملائي الباحثين. وإنني لأرجو الله أن يأخذ بيدي وزملائي لخدمة سورية العروبة، سورية قلعة الصمود والتصدي.

إن الله على كل شيء قدير

سهام

(١) قول الشاعر:

مؤملاً خير ما لقبْتُ من عوج
فكم لادرب الورى في الناس من فرج
فما على أعوج في الناس من حرج

أسير تحت ركاب الثَّجَب ذا عوج
فإن لحقْتُ بهم من بعاما سبفوا
وإن ظللت بفِئاع الأرض منقطَعاً